الوثيقة

دورية تاريخية محكمة

يصدرها
مركز الوثائق التاريخية
بدولة البحرين

العدد السادس والعشرون ـ السنة الثالثة عشرة
المحرم ١٤١٥ هـ ـ يوليو ١٩٩٤ م

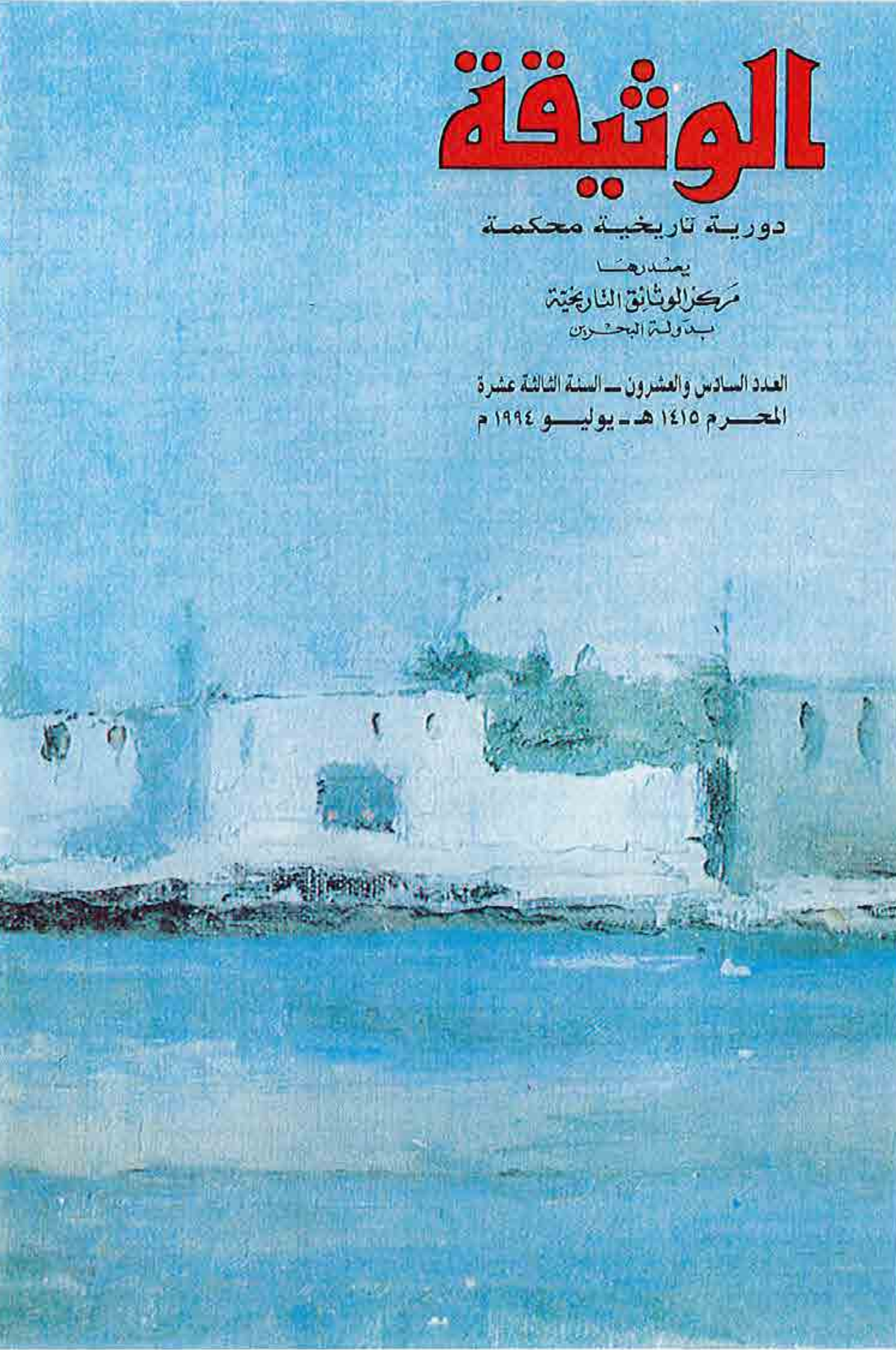

كلمة العدد

بقلم : سعادة الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة

تاريخ البحرين الحديث في المصادر المحلية

في محاضرة بكلية الآداب جامعة البحرين طرح مؤخرا موضوع تاريخ البحرين الحديث في المصادر المحلية. وكان لي شرف الحديث حول الموضوع المطروح وقد يكون من المفيد هنا أن أعرض لبعض ما تناوله الحديث. لقد كان الموضوع الذي طرح عريضا فالحديث عن المصادر المحلية حديث ذو شئون وشجون. والحديث في تاريخ البحرين حديث طويل يحتاج لمساحة كبيرة. ولكني سأحاول قدر الاستطاعة.أن أتجول في آفاق الموضوع راجيا أن نخرج منه بشيء ذي فائدة.

الموضوع المحدد هو تاريخ البحرين الحديث في المصادر المحلية كما هو واضح ينقسم الى قسمين. الأول هو تاريخ البحرين الحديث. والثاني هو المصادر المحلية. أبدأ الحديث بالشق الثاني من الموضوع. ذلك أن المصادر هي النبع الذي يستقى منه المؤرخ ويعتمد عليه.

الفترة المحددة للموضوع هي التاريخ الحديث أي من بداية القرن السادس عشر. وإذا استعرضنا موضوع المصادر لهذه الفترة. فسوف نواجه بظاهرة تدعو للدهشة، كما تدعو للأسى. فليست هناك فترة في تاريخ البحرين الممتد تكدست فيها المصادر الأجنبية مثل فترة تاريخها

الحديث. وليس هناك بالمقابل فترة ندرت فيها المصادر المحلية المعتمدة مثل هذه الفترة. وأقصد بالمحلية هنا. المصادر البحرينية. وهو ما يفهم من العنوان فالتقسيمات المشهورة كما هو متعارف عليه هى المحلية والخليجية والعربية والأجنبية. وبينما نجد أن المصادر العربية وخاصة كتب الرحالة العرب والمسلمين هى المصدر الرئيسي لما كتب عن البحرين في القرون الوسطى. نجد أن المصادر الأجنبية هى المصدر الرئيسي لما كتب عن البحرين في العصر الحديث. في القرون الوسطى كتب البلاذري والطبري وابن قرطبه وناصر خسرو وأبو الفدا ثم ابن بطوطة. أما في العصر الحديث فنجد أمامنا لوريمر وكيلي وويلسون وغيرهم ومجموعة الوثائق الانجليزية والهولندية والبرتغالية والعثمانية وما كتبه المبشرون والعسكريون الذين تخفوا في زي الرحالة والذين يسبقون أي غزو ليمهدوا بتقاريرهم الطريق ويقدموا صورة واضحة للقادة العسكريين عن التحصينات والقوى المحلية والشخصيات المؤثرة. حتى ان مؤلفا كبيرا مثل الدكتور بدرالدين الخصوصي والذي كتب أحد الكتب الهامة والمعتمدة عن تاريخ الخليج العربي أعلن في مقدمة كتابه أنه يعتمد على الوثائق الانجليزية والمؤلفات الأجنبية. ونحن هنا لا نقلل من جهد المؤرخين العرب ولا نقلل أيضا من جهد المؤرخين الأجانب. فلا شك أن الكتاب الأجانب أدوا ما كُلفوا به وبذلوا في سبيل ذلك جهدا كبيرا وتركوا لنا شيئا هاما وإن يكن في حاجة الى تمحيص وتصحيح في كثير من جوانبه. والمؤرخون العرب لم يجدوا أمامهم إلا ما كتبه الأجانب. بعضهم تناوله بحذر وصحح بعض جوانبه. وبعضهم سقط في كثير من الأغلاط التي أوردها الأجانب عن قصد أو عن غير قصد.

على سبيل المثال جاء في كثير من المؤلفات والوثائق الأجنبية وصف القوى المحلية التي كانت تدافع عن بلادها وعن مياه الخليج بأنهم قراصنة بعد أن لاحظ الأجانب ضراوة تصديهم للقوى الغازية. وفاتهم أن القراصنة الحقيقيين هم الذين جاءوا من أقصى الشمال ليحتلوا وينهبوا ويفتكوا بالسكان الآمنين. هذا الوصف شاع وتسرب الى كثير من المؤلفات العربية دون أن يتوقف كاتبوها عنده ليناقشوه أو

يصححوه.مثال آخر عندما كان بعض الضباط المتنكرين في زي الرحالة أو المبشرين وهم الذين سبقوا قوات الغزو يمرون بالمنطقة ويحاولون التوغل في البادية ومعايشة أهلها. كانوا يكتبون في بعض تقاريرهم عن بعض الزعامات مثلا أنه متزوج من أربع وأنه بذلك يعتبر رجلا غارقا في الملذات والشهوات ويرسمون بذلك أبعاد شخصية هذا الزعيم أو ذاك.وهم بالطبع لم يكونوا يدركون أن الزواج بأربع أمر أباحه الاسلام وأن الزواج وخاصة بالنسبة لبعض الزيجات كان في معظم الحالات زواجا سياسيا يستهدف دعم الروابط مع قبائل أخرى أو زعامات أخرى وأنه بذلك لا علاقة له بالميل الشخصي أو انحراف الشخصية مثل هذه الأخطاء المقصودة أو غير المقصودة تمتلىء بها المصادر الأجنبية. وانتقلت في كثير من الأحيان ـ كما قلت ـ الى المصادر العربية.

في أواخر السبعينات كان هذا الأمر يشغلنا كثيرا فقد وجدنا المصادر البحرينية التي كتبت عن تاريخ البحرين السياسي لا تتجاوز في عددها أصابع اليد الواحدة.

وكانت المشكلة التي أمامنا محددة. وهي كيف يمكن توفير المصادر المحلية. وبدأت كتابة «البحرين عبر التاريخ» وصدر الجزء الأول منه بالاشتراك مع الأخ عبدالملك يوسف الحمر. وتناولت فيه البحرين قديما. ثم حضارة ديلمون وانتقلت في الفصل الثاني الى البحرين من خلال النقوش التاريخية. ثم أسطورة دلمون ثم علاقة البحرين بالفينيقيين في الفصل الثالث. وفي الفصل الرابع تحدثت عن البحرين قبل ظهور الاسلام وعلاقتها مع كل من دولة الجرهائيين وملوك الحيرة واللخميين. ثم البحرين من القرن الرابع وحتى ظهور الاسلام في الفصل الخامس.

وانتقلت في الفصل السادس الى البحرين في العصور الاسلامية وتوقفت عند نهاية دولة القرامطة. وفي سنة ١٩٩١م أصدرت الجزء الثاني بالاشتراك مع الدكتور علي أبا حسين وبدأت فيه من حيث توقفت في الجزء الأول أي من نهاية دولة القرامطة ثم العيونيون والزنكيون والسلغريون والجبور وتحدثت في النهاية عن الشيخ أحمد الفاتح

لأتوقف في هذا الجزء عند وفاة الشيخ سلمان بن أحمد. وقبل صدور الجزء الثاني من البحرين عبر التاريخ كان قد صدر في السبعينات كتاب البحرين بين الاستقلال السياسي والانطلاق الدولي وهو في الأصل أطروحة الدكتورة أمل الزياني للحصول على الماجستير من جامعة القاهرة وقد تضمن الكتاب مجموعة كبيرة من الملاحق وبيان الاستقلال والمرسوم الأميري بشأن التنظيم السياسي للدولة ودستور البحرين وغير ذلك من الوثائق والاتفاقيات التي تجعل من الكتاب موسوعة سياسية موجزة حول تاريخ البحرين الحديث والمعاصر وتجعل منه أيضا أحد المصادر المحلية القيمة.

في سنة ١٩٧٨ إتجه التفكير الى ضرورة تكثيف الجهود لتوفير المصادر المحلية عن تاريخ البحرين وبالذات في العصر الحديث والمعاصر. وبتوجيه من حضرة صاحب السمو الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة الذي يولى هذا الموضوع اهتماما خاصا وبتشجيع من سمو الشيخ خليفة بن سلمان آل خليفة رئيس الوزراء وسمو الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة ولي العهد تقرر إنشاء مركز الوثائق التاريخية كأحد الأجهزة التابعة لديوان سمو ولي العهد وتوفرت له الامكانيات اللازمة والمرونة الكافية للقيام بمهمته الصعبة وكان لي شرف رئاسة هذا المركز. وكانت الخطة المطروحة أمامنا ذات شقين رئيسيين. الشق الأول ويعتمد على حشد ما يمكن أن نطلق عليه المادة الخام لكتابة التاريخ إذا جاز لي أن أطلق عليها هذا الوصف ـ وقد تم في هذا السبيل تجميع عدد ضخم يربو على الخمسين ألف وثيقة من الأرشيفات البرتغالية والانجليزية والعثمانية وآخرها أرشيف محمد علي. وواكب عملية الجمع إقامة مؤتمر البحرين عبر التاريخ في سنة ١٩٨٣ وقد دُعى إليه أكثر من ٧٠ مؤرخا وأثاريا من مختلف أرجاء العالم جاءوا ومع كل منهم بحث أو أكثر عن تاريخ البحرين في مختلف العصور. إضافة الى المتابعة والاشتراك في المؤتمرات المماثلة التي شهدتها دول الخليج حول نفس الهدف، وحشد ما قدم إليها من أبحاث. كان هذا هو الشق الأول. أما الشق الثاني فاتجه الى إصدار أول دورية تاريخية بالبلاد وهي «مجلة الوثيقة» التي صدر العدد الأول منها في

سنة ١٩٨٢ وتعتمد على حشد أكبر عدد ممكن من الأبحاث حول تاريخ البحرين بأقلام بحرينية وخليجية وعربية وأجنبية. وتشجيع الكتابة في هذا المجال

وقد استطاعت هذه الدورية أن توفر كما كبيرا من الدراسات في مختلف عصور التاريخ التي تتابعت على أرض البحرين الطيبة من خلال أعدادها التي نضع الآن بين يدى القارىء العدد السادس والعشرين منها.بذلك أمكن كما قلت حشد كمية كبيرة من المادة الخام نستطيع أن نقول الآن وبكل ثقة أنها قادرة على توفير المصدر الذي يمكن أن تنطلق منه أجيال قادمة من المؤرخين والباحثين في كتاباتهم عن تاريخ البحرين.

انتقل الآن الى الشق الثاني من الموضوع وأبدؤه بلمحات خاطفة عن حال هذه الجزر الجميلة المحببة الى النفس ليس الى نفوس أهلها فحسب بل الى نفوس كل من زارها أو استقر فيها فترة طالت أو قصرت إذ تترك في نفسه أثرا لا يمحى لنتخيل هذه الجزر عندما كانت بكرا سنجد أن غالبية ينابيع هذه الجزر وعيونها كعذاري وأم الشعوم وعين الرحى والسفاحية وعين الحكيم وغيرها من العيون كانت تجرى الى سواحل البحر وكانت هذه السواحل مكتظة بأشجار باسقة هذه الأشجار هي ما نسميها الآن القرم أما ريضانها كروضة الصخير وروضة الرفاع فكانت مكتظة بأشجار اليانبوت وسهولها ووديانها بها أشجار المرخ وأشجار العوسج وغيرها.

وعندما سكنها سكانها الأقدمون ردموا مجاريها وقطعوها من البحر وشقوا لها السواقي والجداول ووزعوا مياهها على أربعة عشر وضحا على مدار الأسبوع سبعة أيام الليل وضح والنهار وضح وأقاموا الجداول والبساتين وكانت ينابيعها عذبة قطعوها من البحر فلا عجب أن تسمى بالبحرين حيث كانوا يعتقدون أنها تقوم على بحر عذب ويحيط بها بحر مالح ولا عجب أن تقدس هذه الأرض وأن يتغنى بقدسيتها شعراء السومريين فهي أرض خصبة قليلة الكوارث فليس فيها أنهار تفيض سنويا وتغرق المحاصيل وتخرب الزروع ولكن فيها جداول رقراقة عذبة تجري حسبما يريد لها المزارع بصخينه فلا عجب

أن نسمع المثل الذي يقول الماء تحت الصخين (وهو الفاس) هذه نبذة جغرافية عن هذا الوطن الغالي.

أما تاريخ هذه الجزر المتسلسل المعروف فقد بدأ بعصر دلمون والتنقيب عن الآثار يظهر لنا في كل يوم أشياء جديدة تضاف الى معلوماتنا عن هذا العصر ونفتخر به ثم عصر الجرهائيين ثم عصر التنوخيين ثم عصر المناذرة والفرس ثم العصر الاسلامي الذي دانت له البحرين بدون قتال بل أجابت داعي الله إذ دعاها للاسلام وفي عصر العباسيين تغلب على البحرين القرامطة وأسسوا دولة مرهوبة الجانب وصلت فتوحاتها الى حدود الشام ومصر ولكنها لم تكن مؤيدة من المسلمين بسبب انحراف القائمين عليها عن تعاليم الاسلام وعندما ضعف أمر القرامطة تغلب على حكمهم العيونيون وفي ذلك يقول الشاعر ابن المقرب:

سل القرامط من شظى جماجمهم
فلقا وغادرهم بعد العلا خدما

هذا العصر عصر العيونيين يجب أن نهتم به ونقيم الندوات والدراسات حوله. ثم تمكن السلغريون حكام شيراز من التغلب على العيونيين وهم يمثلون أتابكيه من الأتابكيات التي خلفت الدولة السلجوقية وتسمى أتابكيتهم أتابكية شيراز أو أتابكية فارس وكان على رأسها أبو بكر سعد بن زنكي وتمكنوا من احتلال البحرين كما احتلوا القطيف ولكنها لم تدم في يدهم حيث استطاع العرب طردهم من القطيف اما البحرين فقد استمروا فيها فترة من الزمن وأنا أعتقد بأن الجزر اختصت باسم البحرين عن سائر المنطقة في هذه الفترة وجاء المغول وتصدى لهم جميع المسلمين إلا حاكم شيراز فقد رحب بهم وزوج ابنته لهولاكو وهو كافر ليحافظ على مملكته من شرهم وفعلا سلمت الأراضي التي تحت يده من هجمات المغول وفي عصر المغول قسمت البلاد الاسلامية الى ولايات وكانت سواحل الخليج بضفتيه تحت ولاية هرمز، وهرمز هي ما تسمى بندر عباس وميناو في الوقت الحاضر وبعد ضعف المغول أصبحت هرمز مملكة وكانت البحرين من ضمن الأقاليم التي تحت يدها وفي أواخر القرن التاسع الهجري وبداية

القرن العاشر الهجري تمكن أجود بن زامل الجبري وهو من قبيلة الجبور فرع من قبيلة بني خالد وهم فرع من قبيلة عقيل بن عامر أن يؤسس له دولة امتدت من الاحساء الى القطيف ونجد وأصبحت له شهرة في الخليج وحدث في مملكة هرمز انشقاق بين حكامها وحروب فطلب من أجود أحد الخصوم أن يعينه على استرجاع حكمه على هرمز فقبل أجود أن يعينه على شرط أن يتنازل له عن حكم البحرين فوافق على ذلك وكتبت بينهم اتفاقية ودخلت بموجبها البحرين في حكم أجود بن زامل الجبري سنة ٨٨٠هـ ١٤٧٦م. وفي أواخر القرن الخامس عشر الميلادي وبداية القرن السادس عشر كانت حركة الاكتشافات الجغرافية في أوج نشاطها وجاءت معها بخطر جديد تمثل في الغزو البرتغالي الذي ساعده انقسام المسلمين الى معسكرين معسكر سني بقيادة العثمانيين ومعسكر شيعي بقيادة الدولة الصفوية ونشبت بين الدولتين المسلمتين حروب وانتهز البرتغاليون انشغال المسلمين بهذه الحروب وأرسل البوكيرك قواته لمهاجمة الخليج سنة ٩١٢هـ ١٥٠٦ ميلادية وبدأت باحتلال جزر كوريا موريا في البحر العربي ثم هاجمت السفن التجارية والسفن المحلية المحملة بالحجاج وهاجمت المدن والقرى على سواحل عُمان وأعملت فيها حرقا وتدميرا وكان افونسو البوكيرك يشرف بنفسه على المجازر الرهيبة التي ارتكبت.

وهبت دولة الجبور في البحرين لمساعدة المدن العمانية والمملكة الهرمزية ولكن البرتغاليين تمكنوا من هزيمة القوى التي قابلتهم واستولى البرتغاليون على هرمز وعينوا توران شاه ملكا عليها من قبلهم واستقروا في جزيرة هرمز وبنوا قلعتهم فيها.

وبعد أن استسلمت مملكة هرمز للبرتغاليين امتنعت البحرين عن ارسال عائد البساتين والرسوم المتفق عليها بين مملكة هرمز ودولة الجبور في البحرين وكان سلطان البحرين آنذاك هو مقرن بن أجود بن زامل الجبري.

في سنة ٩١٥ ـ ١٥٠٩ كتب البوكيرك الى الشاه اسماعيل الصفوي رسالة جاء فيها.

«اني أقدر احترامك للمسيحيين في بلادك وأعرض عليك الأسطول

والجند والأسلحة لاستخدامها ضد قلاع الترك وإذ أردت أن تنقض على بلاد العرب أو تهاجم (مكة) فستجدني بجانبك في البحر الأحمر أمام جده أو عدن أو في البحرين أو القطيف أو البصرة وسيجدني الشاه بجانبه على امتداد الساحل الفارسي وسأنفذ له ما يريد».

وتمخضت الحرب بين الدولتين المسلمتين عن انتصار الدولة العثمانية بقيادة سليم على الدولة الصفوية بقيادة اسماعيل في معركة جال ديران ٩٢٠ ــ ١٥١٤م واحتل العثمانيون مدينة تبريز واستولوا على أجزاء كبيرة من دولتهم. بعد هذه المعركة زاد اتصال الشاه اسماعيل بالبرتغاليين وتبادل معهم الهدايا وارتبط معهم بتحالفات لمواجهة خطر الدولة العثمانية على بلاده، وفي ديسمبر سنة ١٥١٥مات البوكيرك ولكن سياسة البرتغال ظلت كما هي وبدأت استعداداتهم وتهديداتهم تقوى على البحرين. لم يغب ذلك عن بال السلطان مقرن بن أجود الجبري لذلك نراه يحج في هذه السنة لمقابلة شريف مكة ورجال الدولة العثمانية ليطلعهم على تلك الأحداث ويطلب المساعدة وأقام مقامه في الحكم ابن أخته (حميد الخالدي) وهو جد آل حميد الذين حكموا الاحساء والقطيف فيما بعد وهم براك بن عريعر آل حميد وعشيرته.

وعاد السلطان مقرن من الحج ليشرف على تنظيم قواته استعدادا للهجوم المنتظر فجهز أسطولا كبيرا استعان في بنائه بعمال مهرة من العرب والترك والفرس كما أعاد تقوية أسوار وتحصينات البحرين والقطيف وبذل اهتماما كبيرا في اعداد قلعة البحرين للدفاع.

وفي ١٥ يونيو ١٥٢١ تحرك أسطول من هرمز وهو يضم قوات تابعة لملك هرمز وقوامها ثلاثة الاف من الفرس والعرب وتحملهم مائتا سفينة ويقودهم ريس شرف الدين أوريس ظرفه كما تطلق عليه بعض المصادر، والقوات البرتغالية وقوامها ٤٠٠ برتغالي تحملهم سبع سفن كبيرة مزودة بمدافع ضخمة ويقودها أنطونيو كوريا.

وتكونت قوات البحرين من اثنى عشر ألفا من العرب وأربعمائة رام للسهام وثلاثمائة فارس عربي وعشرين جنديا تركيا من حملة البنادق كانوا يدربون السكان على القتال واستخدام البنادق وكانت القيادة

للأمير مقرن نفسه.

ونشبت المعركة واستمرت عدة أيام وكان الهجوم مركزا على قلعة البحرين وكان التفوق للبرتغاليين بسبب المدفعية التي كانت تدك جدران القلعة وتمهد لنزول القوات المهاجمة وكذلك البنادق التي يتسلح بها المهاجمون يقابلها سيوف وسهام ومع الأسف فإن معظم المصادر التي تصف المعركة برتغالية وهي تمثل وجهة النظر البرتغالية وقد أصيب السلطان مقرن بن أجود بإصابات استشهد من جرائها وتولى القيادة حميد الخالدي الذي سحب قواته الى القطيف ونقل جثمان السلطان مقرن في احدى السفن الى القطيف وتمكن القائد البرتغالي من التعرض لهذه السفينة واحتز رأسه وأرسله إلى هرمز.

انتهت المعركة لصالح المهاجمين وخضعت البحرين للنفوذ البرتغالي ومنح الملك البرتغالي يوحنا الثالث وسام النصر لأنطونيو كوريا وسمح له أن يلبس الوسام على ذراعه وأمر الملك أن يقرن اسم البحرين (بهاريم) مع اسم أنطونيو كوريا ونقشت المعركة على مسلة من حجر، كما رسم رأس مقرن على ترس أنطونيو كوريا.

ورممت قلعة البحرين من الأضرار الجسيمة التي ألحقتها بها المدفعية البرتغالية يشير الى ذلك ما كتب على صخور جزيرة جدا ونصه «وفي شهر شعبان سنة ٩٦٨ هـ - ١٥٢٣ ميلادية. وافق الفراغ من قطع مائة ألف صخرة لتجديد بروج قلعة البحرين أيام الوزير الأعظم جلال الدين مراد محمود شاه على يد العبد فيروز».

وأصبحت البحرين تابعة للإدارة في هرمز الخاضعة للنفوذ البرتغالي.

سيطر البرتغاليون على الخليج وباركت كل أوروبا أعمالهم الهمجية باسم الصليب واستمر وجودهم حتى سنة ١٦٢٢م وإن كان وجودا قلقا تعرضوا فيه بدورهم لمقاومة عنيفة ولمعارك ضارية شاركت فيها كل مناطق الخليج وتبرز هنا ثورة ١٥٢٢ وهى الثورة التي تم ترتيبها للهجوم على البرتغاليين برا وبحرا في ليلة واحدة وفي وقت واحد في كل من مسقط وقريات وصحار والبحرين وهرمز أما كيف تم ترتيب ذلك في زمن لم تكن وسائل الاتصال فيه متطورة جدا أو حتى موجودة وإنما

الـذي كان متـوافراً هـو الوسـائل البدائيـة فإن ذلك يحتاج الى دراسـة مستفيضة وان كانـت دلالته هامة الى أبعد حـد وهي استشعار الجميع أن الجرح واحد وأن العـدو واحد وأن التنسيـق والتعاون في مـواجهة الخطر ضرورة لا بديل عنها.

كان البرتغاليون يكتفون بـاحتلالهم السواحل ويبنون تحصيناتهم على هذه السواحل ربما لقلة عددهم ولرغبتهم في القرب من سفنهم وكان همهم هو جمع الأموال والرسوم ويتركون جمعها والشئون الداخلية في أيد أناس متعاونين معهم من أهالي البلد المحتلة وان كان هذا لا يمنع من القيام بمغـامرات همجيـة على الداخل لنهـب الأموال واحـراق الأسواق والسفن وتأديب من يشق عصـا الطاعـة عليهم ثم العودة الى مـراكزهم الحصينة، وفي عام ٩٣٦هـ ١٥٢٩ ميلاديـة كان الحاكم على هرمز يدعى شرف الدين وكان خاضعـا للنفوذ البرتغالي والحاكم في البحرين تطلق عليه الوثـائق البرتغالية اسم (بربـادين) ويبدو أن هذا الاسم تحريف لبـدر الدين وهـو من أقارب شرف الـدين وكـان على البحرين أن تـدفع الضريبة الى حاكم هـرمز ولكن بدر الدين امتنع عـن دفع هذه الضريبة فأرسل نائب الملك البرتغـالي في الهند أخاه (سماو داكونها) يقـود حملة بحرية في محرم ٩٣٦هـ سبتمبر ١٥٢٩ ميـلادية مكونة من خمس سفن تحمل حـوالي ٥٠٠ رجل مع ست سفن أخـرى مزودة بـالمدافع يقودهـا (باشوار ديسوسا) الذي أخذ يقوم بـدورياته في المياه القريبة من جزر البحـرين ليمنع بـدر الدين مـن جمع المقاتلين من السـواحل المجـاورة وتقول الـوثائق أن بـدر الدين كان يقـود ثمانمائة رجل ورفض تسليم قلعـة البحـرين ورفع علمين على القلعـة أحـدهما أبيض ويمثل السلم والآخـر أحمر ويمثل الحرب ويعني بـذلك أنـه متهيىء للسلم ان أراد البرتغـاليون السـلام وانـه متهيىء للحـرب ان اختاروا الحرب وأمـر القائد البرتغـالي بضرب القلعة بـالمدافع وتصدعت بعض جـدرانها من جراء القصف ولكنها بقيت صامدة واستمر القصف ثلاثة أيام.

ولم يؤثر ذلك في المدافعين حتى أشرفـت ذخيرة المهاجمين من البارود على النفاد فأرسل البرتغـاليون يطلبـون المدد والنجدة من هرمـز وبعد أسبـوعين وصلـت النجـدة وفي هـذه الفترة انتشرت بين الجنـود

البرتغاليين الحمى وقضت على أكثرهم فلم يبق منهم حيا سوى ٣٥ جنديا وكان بامكان أهل البحرين ابادتهم بسهولة ولكنهم عاملوهم بشهامة فتركوهم ليعودوا حتى يقصوا على البرتغاليين ما لاقوه ولكن أكثرهم لم يتمكن من ذلك إذ واجهوا محنة أخرى في عودتهم وسط الأمواج والأعاصير ومات (سيماو) في الطريق ولم يصل الى هرمز إلا بقايا البقايا.

وبدخول عام ٩٤١هـ ١٥٢٤م بدأت المنطقة تشهد تغييرا في موازين القوى إذ تمكن الخليفة العثماني سليمان القانوني بن السلطان سليم (والسلطان سليم) هو الذي لقب بخليفة المسلمين بعد احتلال مصر وتنازل الخليفة العباسي له عن الخلافة وأصبح سليم أول من لقب بخليفة المسلمين من السلاطين العثمانيين وبعد وفاته خلفه ابنه سليمان فكان الخليفة الثاني في الأسرة العثمانية ولقب بخليفة المسلمين السلطان سليمان القانوني بن السلطان سليم.

تمكن السلطان سليمان من احتلال بغداد وشمال ووسط العراق ولما كانت عواطف معظم العرب في ذلك الوقت تميل الى مساندة الدولة العثمانية باعتبارها أكبر دولة إسلامية وحاملة لواء الدفاع عن الاسلام فقد توافدت عليه الوفود وبايعه أمير البصرة وأمير الاحساء وسارع أمير البحرين ريس جلال الدين مراد وأمير القطيف الواقعتين تحت النفوذ الهرمزي الخاضع للنفوذ البرتغالي بطلب المساعدة من الخليفة العثماني للتخلص من النفوذ البرتغالي كما أن سلطان هرمز شرف الدين بعث برسالة للسلطان العثماني سليمان القانوني وهو خليفة المسلمين يطلب منه ارسال مساعدة للتخلص من النفوذ البرتغالي واستجاب السلطان لتلك الطلبات فجرد عدت حملات بحرية كان مصيرها الفشل وظل البرتغاليون يتحكمون في الخليج طوال القرن السادس عشر ومع ذلك ضعف أمرهم في أواخر القرن السادس عشر حيث قامت أسبانيا بضم البرتغال إليها عام ١٥٨٠م ـ ٩٨٨هـ وفي سنة ١٥٨٨م ـ ٩٩٧هـ انتصرت بريطانيا على أسبانيا في معركة الطرف الأغر وحطموا الأرمادا الشهيرة وعلى أثر انتصار بريطانيا في هذه المعركة بدأ اهتمامها بتجارة الشرق يزداد، يقول الأستاذ قدري قلعجي

في كتابه (الخليج العربي بحر الأساطير) ص ٣٧٧ «عرف الانكليز الذين يتصفون بالدهاء منذ القدم كيف يدخلون الخليج العربي متابعين خط سيرهم الذي انتهجوه في الهند، ومسوح الراهب وطليسان التاجر زيان قديمان من أزياء المستعمرين الذين يتقدمون من الشعوب الضعيفة والمتأخرة بباقات الورود التي تخفي تحتها الخناجر» وقد شجع بريطانيا على الدخول في هذا المعترك ما يلي:

أولا : سطا المدعو دريك عام ٩٩٦هـ ١٥٨٧م على أرشيف التجارة البرتغالية في السفينة فيليب وأطلع على الأرباح الأسطورية التي تعود على البرتغاليين من تجارة الشرق.

ثانيا : تولى الشاه عباس الكبير عرش الصفويين وكان الشاه صديقا للبريطانيين ومن أبرز مستشاريه الشقيقان أنطونيو وروبير تشيرلي اللذين حملا له الهدايا وزوداه بالأسلحة ومنها ستون ألف بندقية.

واستنادا على تحالفه مع الانكليز قلب للبرتغاليين ظهر المجن وبدأ يهاجم قلاع البرتغال ومراكزهم في الخليج مع مطلع القرن السابع عشر.

وبالنسبة للبحرين فإن القوة التي ظهر بها الشاه عباس الصفوي ومعاداته للبرتغاليين شجعت سكان البحرين أن يبعثوا وفدا الى الشاه عباس الصفوي من كبار أهل البلد يطلبون من الشاه مساعدتهم للتخلص من النفوذ البرتغالي وذلك سنة ١٠١٠هـ ١٦٠١م، (ينظر في ذلك ديوان ابي جعفر الخطي والقصيدة التي مدح بها الشاه عباس الصفوي).

ذكر الأستاذ قدري قلعجي في كتابه المذكور سابقا صفحة ٣٨٠ تحت عنوان ثمار الصداقة البريطانية الفارسية ما يلي:

«واستنادا الى قوة الانكليز طفق الشاه عباس منذ عام ١٠١١هـ ١٦٠٢م يجرد حملاته على القلاع البرتغالية وفي ذلك العام بالذات هاجم البحرين وانتزعها من يدهم واحتلها فترة قصيرة من الزمن».

كما اشتركت في هذه الأحداث الدولة الهولندية ففي أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر اجتاز أسطول هولندي مؤلف من خمس عشرة سفينة رأس الرجاء الصالح ووجهته مياه المحيط

الهندي وفوضته حكومته للعمل الحربي والسياسي وبعد أن درسوا مواقعهم في الشرق ضربوا المواقع البرتغالية في جزائر أندونيسيا وزحزحوا البرتغال عنها واستطاعوا دخول الخليج العربي وساهموا مع الانكليز والقوى المحلية في طرد البرتغال من الخليج ونافسوا الانكليز في التجارة.

وما يهمنا في البحرين هو انها خلال السنوات التي أعقبت مقتل مقرن بن أجود وما أعقبه من فوضى أضعفت البحرين لدرجة كبيرة، فبينما كانت في عصر مقرن بن أجود تستطيع حشد ١٢ ألف جندي وأن تتصدى للبرتغاليين في عنفوان قوتهم وبينما كانت في تلك السنوات دولة عامرة وفقا لما ذكره أحمد بن ماجد من أنها كانت تحتوي على ٣٥٠ قرية الى آخر ما ذكره في هذا الصدد نجدها قد ضعفت نتيجة تتابع الأيدي عليها من البرتغاليين والفرس كما احتلها إمام عُمان الذي لم يبق فيها إلا فترة قصيره أخرجه بعدها النصور حكام بوشهر بأمر من نادر شاه في حملته التي جردها على الخليج وعُمان بصفة خاصة عقب طلب أهل عُمان مساعدته. وقد بلغت البحرين في هذه الفترة درجة من الضعف جعلت المقيمين الهولنديين في جزيرة خرج وهما نيف هاوسن وجان فاندر هلست يتقدمان بمشروع لغزوها في رسالة بعثاها الى الحاكم الهولندي في الهند بتاريخ أول نوفمبر ١٧٥٤م ولا ويطلبان لاتمام ذلك سوى ١٥٠ جنديا و ١٥٠ ملاحا وبعض الذخيرة.

إن المتعارف عليه أن تاريخ العالم الحديث يبدأ مع بداية القرن السادس عشر، ولكن بعض الدول اختارت لتاريخها الحديث بدايات مختلفة، ربما لأنها تمثل بداية مرحلة استقرارها السياسي الذي يمكن المؤرخ من تتبع الأحداث وتداعيها بدقة وصدق، فالفرنسيون مثلا يجعلون الثورة الفرنسية بداية تاريخهم الحديث، والمصريون يجعلون حملة نابليون هي بداية تاريخهم الحديث وفي البحرين ترى الدكتورة أمل الزياني أن تاريخ البحرين الحديث يبدأ في عام ١٧٨٣م وهو الرأي الذي أميل اليه، فقد كانت الفترة السابقة على هذا التاريخ مضطربة أشد الاضطراب! ولا يستطيع باحث مهما بلغ من الدقة أن يدعي أنه أحاط بكل ما دار فيها من أحداث. تاريخ البحرين الحديث إذن

هو تاريخ العتوب! فمن هم العتوب؟

العتـــوب جمع عتبي وهـــو حلف يضم افخـــاذا كثيرة لعـدة قبـــائل هـاجـرت من مسـاكنها في نجـد واستقـرت على ضفـاف الخليج بقـرب البحرين ومنطقة البحرين لم تكـن غريبة على عشائر تنتمي لبني وائل وتميم فهي مساكنهم منذ القدم والبحرين كانت ولا تزال تعتز بشاعرها الوائلي طرفـة بن العبد كما تعتز بالمنـذر بن ساوى التميمي. وتحالفت هذه القبائل مع بعضها البعض وتصـاهرت فيما بينها وأصبحت تمثل قبيلـة العتوب الـواحـدة وأقدم من ذكـر عنهم الشيخ عثمان بن سنـد المتوفي عام ١٢٥٠هـ ١٨٣٤م فقال: (والذي يظهر أن بني عتبه متباينو النسب لم تجمعهم في شجـرة أم وأب ولكن تقـاربـوا فنسب بعضهم الى بعض وما قارب الشيء يعطى حكمه على الفرض).

كان عام ١١١٢هـ ١٧٠٠م هو بداية البحث لتحقيق وجود العتوب في البحرين وذلك فيما عاصرهم من الدول والمشيخات فقد ساقنا البحث الى وثائق باللغـة العثمانية بخطها العربي إذ عثـرنا في أرشيف رئاسة الوزراء العثماني في اسطنبـول في دفاتر المهمـة رقم ١١١ وعلى الصفحة ٧١٣ منه على وثيقة مؤرخة في ٢١ رجب ١١١٣ هـ الموافق ٢٣ ديسمبر ١٧٠١م أرسلها والى البصرة على بـاشا الى السلطـان العثماني والصدر الأعظم باسطنبـول وترجم الوثيقـة عدة أسـاتذة في جامعـة اسطنبول منهم البروفسـور خليل سـاحلي أوغلي وأحمد اغـراقجـه وغيرهما كما عثـرنا على نص آخـر في مخطوطـة لؤلـؤة البحرين في تـرجمة مؤلفـه مؤرخا الوقائع مع العتوب في البحرين بقوله:

(قضية القبيلـة المعتدية.. وعام تلـك شتتوها فاحسبـه) وبحساب الجمل لمجمـوع الكلمة شتتوهـا يصبح التـاريخ هو سنـة ١١١٢ هـ ١٧٠٠م وهذا يدلنا على أن العتوب كانوا من سكان هذه المنطقة قبل هذا التاريخ حيث استقروا وتعودوا على ركـوب البحر وقيادة السفن وهذا يحتاج لفترة زمنية ليست بالقصيرة.

نـزل العتوب في طـريق هجـرتهم الى قطر التي كـانت تخضع في ذلك الحين لنفوذ بني خالد ومن قطـر تفرقت الأسر العتبية في سائر موانيء الخليج لتجتمع من جديد في الكويت.

في الكويت قضى العتوب حوالي ٥٠ عاما بلغ فيها آل خليفة حدا كبيرا من الثراء ولكنهم هاجروا من الكويت بسبب بعض الخلافات التي نشبت مع بني كعب في المحمرة وعادوا الى قطر،وفي طريقهم الى قطر ثانية عرجوا على البحرين التي كانوا يعرفونها جيدا من قبل، وقد انتقل آل خليفة من الكويت الى قطر بحراً حيث أسسوا الزبارة. وهي المدينة التي وصفها لوريمر بقوله: (ان المدينة «الزبارة» كانت قلعة آل خليفة حكام البحرين وانها كانت مسورة ومحاطة بقلاع يتراوح عددها بين عشر إلى اثنتى عشرة تحيط بالمدينة في شكل دائرة قطرها سبعة أميال ومن بينها قلاع فريحه وحلوان وليشا وعين محمد وقلعة مرير ورقيات وأم الشرويل، وكل هذه القلاع الآن ـ في سنة ١٩٠٤ ـ مدمرة مهجورة).

كان اختيار الشيخ محمد بن خليفة للزبارة يدل على بعد نظر من حيث موقعها في مواجهة البحرين التي كانت تعتبر من أغنى بقاع الخليج في اللؤلؤ. اتبع الشيخ محمد بن خليفة في الزبارة سياسة حكيمة فقد أقر فيها حرية التجارة والإعفاء من المكوس والضرائب التي تؤخذ عادة من الموانىء المجاورة. وكانت النتيجة اتجاه السفن والتجار الى المدينة. بل شد الرحال اليها الكثير من علماء العصر ورجاله المشهورين وتحولت في وقت قصير الى ميناء مزدهر ملفت للنظر ومنافس خطير للموانىء الأخرى وازاء عجز الكثيرين عن منافسته فقد قرروا القضاء عليه وقد حصن آل خليفة الزبارة تحصينا جيدا أتاح لهم التصدي في عام ١٧٧٧ لحاكم بوشهر الذي قام بأولى محاولاته ضد الزبارة كما أتاح لهم التصدي لسلسلة التحرشات التي بدأوا يواجهونها من القوى الحاقدة الأخرى خاصة بعد أن دأب بنو كعب على قطع الطريق على سفن العتوب. فلما جاء عام ١٧٨٢ تكونت هناك جبهتان الأولى تضم فريق الساحل الشرقي للخليج من شيوخ بني كعب وبندريق وهرمز وانضم اليهم القواسم والثانية تضم عتوب الزبارة والكويت وبدأ نصر بن مذكور والي البحرين من قبل الفرس بشن هجومه على الزبارة انتقاما من آل خليفة الذين استطاعوا اخضاع السفن التجارية التابعة لبوشهر والمتجهة الى البحرين لتسلم الاتاوة

السنوية. وجرد حملة على الزبارة ضمت ألفي مقاتل بقيادة إبنه محمد الذي بدأ في إجراء مناورات بحرية وجعل سفنه في حركة دائبة في المنطقة الفاصلة بين البحرين والزبارة أملا في إثارة الرعب في نفوس آل خليفة ثم بعد ذلك أنزل قواته الى البر حيث فوجئت بقوات الزبارة الأكثر عددا وحماسا والتي يقودها الشيخ أحمد بن خليفة. وبعد معركة عنيفة قتل فيها محمد بن نصر بن مذكور فرت القوات المهاجمة في فوضى الى البحر تاركين أسلحتهم وعتادهم وأصبح الطريق الى البحرين مفتوحا. ولم يضيع الشيخ أحمد الفاتح وقتا فهاجم البحرين فاتحا في عام ١٧٨٣م ليبدأ عهد جديد في هذه الجزر تحولت فيه بصفة نهائية من بلد يتبع عرب بوشهر الخاضعين لشاهات فارس الى دولة عربية للعتوب تحت حكم آل خليفة.

عندما تم فتح البحرين على يد الشيخ أحمد الفاتح كانت القوة الأجنبية المهيمنة في الخليج هى القوة الانجليزية وكان النفوذ العثماني نفوذا اسميا يفرضه الولاء الأدبي لخليفة المسلمين وكانت قوة محمد على آخذة في الازدياد وبعد حملات إبراهيم باشا على شبه الجزيرة العربية تطلعت أنظار محمد على الى الخليج وكان الكثير من القوى المحلية في المنطقة بصدد إنشاء وحدات سياسية أو دعم وحداتها التي أنشئت بالفعل. في سنة ١٧٨٣ أصبح الشيخ أحمد الفاتح حاكما للبحرين والزبارة معا ومقره الزبارة وعندما توفى في سنة ١٧٩٥ ودفن بالبحرين خلفه في الحكم ابناه الشيخ سلمان بن أحمد والشيخ عبدالله بن أحمد وبدأت مع ذلك الأطماع في البحرين تزداد وكانت أولى المحاولات التي تعرضت لها هى احتلال سلطان بن أحمد للبلاد سنة ١٨٠٢ وأخذه أخا الشيخ سلمان رهينة وهو الشيخ محمد عند انسحابه وعندما مات الشيخ محمد في الأسر سنة ١٨٠٨ استعان الشيخ سلمان بن أحمد بالسعوديين الذين أرسلوا عبدالله بن عفيصان لمساعدة آل خليفة في طرد قوات سلطان بن أحمد وعندما تم ذلك بقى بن عفيصان في البحرين مما دفع آل خليفة للاستعانة بالسلطان لطرد ابن عفيصان ومات الشيخ سلمان بن أحمد عام ١٨٢٠ وأصبح الشيخ عبدالله بن أحمد هو الحاكم وعادت أطماع سعيد بن سلطان في البحرين

وجرد حملة في سنة ١٨٢٨م إلا أن الانجليز أنذروه بالتدخل لوقف أي فوضى يتسبب بها في الخليج ووجد عبدالله بن أحمد نفسه بين خورشيد باشا من ناحية والانجليز من ناحية أخرى والعثمانيين من ناحيةثالثة ثم بعد ذلك ثارت بعض الخلافات الأسرية ووقعت خلالها في البحرين بعض المناوشات وانقشع النزاع الذي نشب عقب فترة حكم سلمان بن أحمد وعبدالله بن أحمد باختيار الشيخ عيسى بن علي بن خليفة بن سلمان بن أحمد حاكما على البحرين في سنة ١٨٦٩ وقد استمر حكم الشيخ عيسى بن علي للبلاد مدة تزيد على نصف القرن وتنتهي معه الفترة المحددة للبحث وهي بداية القرن العشرين.

عبدالله بن خالد آل خليفة